اتْرُكيني أكْبُر

تأليف: الدكتورة سناء علي الحركه
رسم: سوزانا ابراهيم

تَمَنَّتْ والدةُ «جاد» أنْ تَتحوَّلَ إلى إنسانةٍ تَرى، ولكنْ لا يَراها الآخرون،
كي تَعيشَ مع ابنِها يومًا كاملاً في المدرسةِ لِتَعرِفَ:
كيف يَتصرّف؟ ماذا يتعلّم؟ كيف يُعبِّر؟ ترى هل ستتحقّق أمنيتها؟
وإذا تَحقَّقَتْ، فماذا ستكتشف؟



إلى "علي" الصّغير أكتب لأقول:
"اشتقت إليك"

الإهداء: إلى قلبين كبيرين

ينبضان في أعماقي

سحر، أمّي الثّانية...

جميلة، عميقة الرّوح...

أصالة

دار النهضة العربية
أصالة للنشر والتوزيع – طبعة أولى 2011
ISBN: 978-614-402-396-9
تلفون: 093 736 1 961+
فاكس: 071 736 1 961+
ص.ب.: 11/3434
الزيدانية، بناية كريدية – بيروت، لبنان
infos@asala-publishers.com

اتْرُكيني أكبُر

مِنْ مُذَكِّراتِ أُمٍّ تَعْتَقِدُ أَنَّ ابْنَها مازالَ صَغيرًا. وعِنْدَما يَخْتَلِطُ عَلَيْها الواقِعُ بِالحلُمِ، تُقَرِّرُ أَنْ تُصْغِيَ إلى صَوْتِهِ، وتَتْرُكَ لَهُ مِساحَةً كَيْ يَكْبُرَ بَعيدًا عَنْ مُلاحَظاتِها، قَريبًا كما دائِمًا مِنْ قَلْبِها.

تأليف: الدكتورة سناء علي الحركه
رسم: سوزانا ابراهيم



«جاد» كَكُلِّ الأطْفالِ، مَزاياهُ كثيرَةٌ، وعُيوبُهُ قليلَةٌ. وأنا كَكُلِّ الأُمَّهاتِ أرَدْتُ أن يَتَخَلَّصَ مِن عُيوبِهِ، لِذا كُنْتُ أُلاحِقُهُ يَوْمِيًّا، وأُراقِبُ تَصَرُّفاتِهِ، وأُوَجِّهُ لَهُ الملاحَظاتِ بِرِقَّةٍ في بَعْضِ الأحْيانِ، وقَسْوَةٍ في كثيرٍ مِنَ الأحْيانِ، إلى أنْ جاءَ ذلك اليومُ، وأدْرَكْتُ أنَّ «جاد»، ابني الصَّغيرَ، صارَ كبيرًا.

«جاد» كَكَثيرٍ مِنَ الأطْفالِ، يَهْتَمُّ بِنَظافَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، ويُحْسِنُ القِيامَ بِواجباتِهِ اليَوْمِيَّةِ. ومع هذا، وقَبلَ أنْ يُغادِرَ في الصَّباحِ إلى المدْرَسَةِ، أقِفُ كالمحارِبِ وأُصَوِّبُ أسْئِلَتي بِاتِّجاهِهِ: «هل غَسَلْتَ وَجْهَكَ؟ هل نَظَّفْتَ أسْنانَكَ؟ هل سَرَّحْتَ شَعْرَكَ؟ هل تَأَكَّدْتَ مِنْ أنَّكَ وَضَعْتَ في حَقيبَتِكَ المدْرَسِيَّةِ كُلَّ ما تَحْتاجُ إليه مِنْ كُتُبٍ ودَفاتِرَ؟».

«جاد» لم يَكُنْ مُحارِبًا. كانَ وَلَدًا مُسالِمًا يُجيبُ عَنْ أسْئِلَتي بصَوْتٍ هادِئٍ، واثِقٍ: «نَعَمْ غَسَلْتُ، ونَظَّفْتُ، وسَرَّحْتُ، وتَأَكَّدْتُ.» أحْيانًا لم يكنْ يُجيبُ. كان يَكْتَفي بِهَزِّ رَأْسِهِ إيجابًا. أحْيانًا أفْتَرِضُ أنَّهُ لَم يَقُمْ بما يَجِبُ أنْ يَقومَ بِهِ، فأثورُ في وَجْهِهِ قائِلَةً: «إلى مَتى عَلَيَّ أنْ أُذَكِّرَكَ بما يَجِبُ أنْ تَقومَ به بِشَكْلٍ تِلْقائِيٍّ؟».

«ما مَعْنى تِلْقائِيّ؟» يَسْألُ «جاد» بِهُدوءٍ تامٍّ، فَأَخْجَلُ مِنْ غَضَبي، وأَضْبِطُ نَبْرَةَ صَوْتي العالِيَةَ، وأقولُ:



««جاد» حَبيبي، عِنْدَما أُوقِظُكَ في الصَّباحِ تَفْتَحُ عَيْنَيْكَ. أنا لا أَطْلُبُ مِنْكَ أنْ تَفْتَحَ عَيْنَيْكَ. أنْتَ تَفْتَحُهُما بِشَكْلٍ تِلْقائِيٍّ. هذا تمامًا ما أُريدُكَ أنْ تَفْعَلَهُ لِلْمُحافَظَةِ على نَظافَتِكَ الشَّخْصِيَّةِ، والقِيامِ بِواجِباتِكَ اليَوْمِيَّةِ.»

«يا أمّي، هذِهِ أُمورٌ صَغيرَةٌ .»

هُدوءُ «جاد» أَثارَ غضَبي هَذِهِ المرَّةَ. وقَبْلَ أنْ يُكْمِلَ كَلامَهُ، كُنْتُ قد فَقَدْتُ السَّيْطَرَةَ على أعْصابي، فَرُحْتُ أَصْرُخُ في وَجْهِهِ: «مَتى سَتَفْهَمُ أنَّ الأُمورَ الكَبيرَةَ ما هي إلّا مَجْموعَةُ أُمورٍ صَغيرَةٍ؟»

– لم أفْهَمْ ما تَقْصِدينَ.

– لم تَفْهَمْ! هَذا لأنَّكَ لا تَقْرَأُ.

– وما عَلاقَةُ القِراءَةِ بالفَهْمِ؟

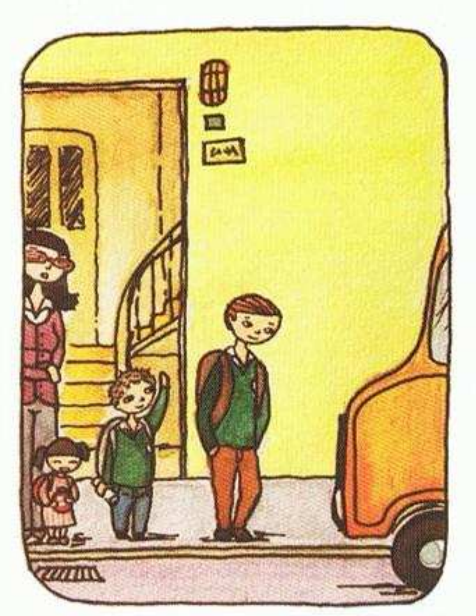
– القِراءَةُ تُغْني مَخْزونَكَ اللّغَويّ. القِراءَةُ تُوَسِّعُ خَيالَكَ المحدودَ. القِراءَةُ تَجْعَلُكَ تَفْهَمُ ما يُقالُ لَكَ وما يَدورُ مِنْ حولِكَ.

– سَأُحاوِلُ أنْ أقْرَأَ.

– سَتُحاوِلُ؟ مَتى؟ بَعْدَ عامٍ؟ بَعْدَ مِئَةِ عامٍ؟



آه... أَفْقَدَني هذا الوَلَدُ القُدْرَةَ على التَّواصُلِ مَعَهُ. تَمَنَّيْتُ لَوْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَلْفِظَ كَلِماتٍ سِحْرِيَّةً لأُصْبِحَ إِنْسانَةً غَيْرَ مَرْئِيَّةٍ تَرى وتَسْمَعُ ولا تَتَكَلَّمُ. تَمَنَّيْتُ لَوْ أَسْتَطيعُ أَنْ أعيشَ مَعَ ابْني يَوْمًا كامِلاً أَراهُ ولا يَراني. أُرافِقُهُ في طَريقِهِ إلى المدرسةِ، أُراقِبُهُ في الملْعَبِ. أَدْخُلُ مَعَهُ الصَّفَّ. أُريدُ أن أعْرِفَ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ؟ ماذا يَتَعَلَّمُ؟ وكَيْفَ يُعَبِّرُ؟ فَفي كثيرٍ مِنَ الأحْيانِ أَشْعُرُ أَنّني لا أعْرِفُ عَنْ «جاد» ابْني شَيْئًا كثيرًا، ولا أعْرِفُ كَيْفَ أصِلُ إلى عَقْلِهِ، على الرُّغْمِ مِنْ ثِقَتي بِوجودي في قَلْبِه.



كَيْفَ يُمْكِنُني أَنْ أُغَيِّرَ بَعْضَ تَصَرُّفاتِهِ؟ سَأَلْتُهُ هَذا السُّؤالَ عِنْدَما عادَ مِنَ المدرسةِ، هَلْ تَعْرِفونَ ماذا قالَ؟ «أُمّي لا تُغَيِّري أَيًّا مِن تَصرُّفاتي. دَعيني كما أنا، وعندَها فَقَطْ سَأَتَغَيَّرُ».

– لم أَفْهَمْ ما تَقْصِدُ.

– لم تَفْهَمي! هَذا لأَنَّكِ لا تُشاهِدينَ البَرامِجَ التِّلْفِزْيونِيَّةَ الَّتي أُشاهِدُها.

– وما عَلاقَةُ البَرامِجِ التِّلْفِزْيونِيَّةِ بالفَهْمِ؟

– في البَرامِجِ التِّلفِزْيونِيَّةِ أَوْلادٌ يَقومونَ بِالمطْلوبِ مِنْهُم مِنْ دونِ أن تُذَكِّرَهُم أُمَّهاتُهُم بذلك. إِحْساسُهُم بِالمسْؤولِيَّةِ يُذَكِّرُهُم. اتْرُكي لي الوَقْتَ كَيْ أُحِسَّ بِالمسْؤولِيَّةِ. اتْرُكيني أَكْبُرُ.



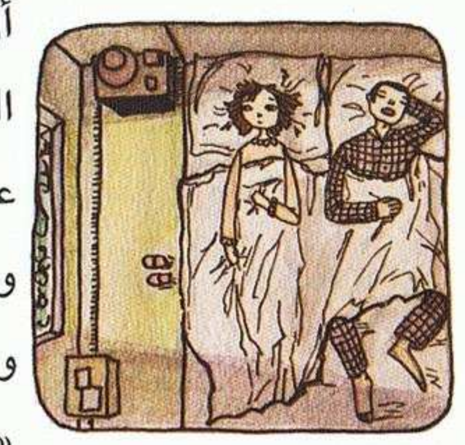
فَجْأَةً، تَنَبَّهْتُ إلى أَنَّ «جاد» لَم يَعُدْ صَغيرًا، وأَنَّني يَجِبُ أن أَتْرُكَ لَهُ مِساحَةً مِنَ الحرِّيَّةِ، وأَتْرُكَ لَهُ الخِيارَ. قَدْ يُصيبُ، وقَدْ يُخْطِئُ، ولَكِنَّهُ حَتْمًا سَيَتَعَلَّمُ مِنَ التَّجْرِبَةِ أَفْضَلَ بِكَثيرٍ مِمَّا سَيَتَعَلَّمُ مِنْ غَضَبي وصُراخي في وَجْهِهِ.

«اتْرُكيني أَكْبُرُ». صَوْتُ «جاد» يُؤَنِّبُني، أَتُراهُ لا يَعْرِفُ أَنَّني أُحِبُّهُ. أنا لا أُحِبُّ أَحَدًا في الدُّنْيا كَما أُحِبُّهُ.



«اتْرُكيني أَكْبُرُ.»

صَوْتُ «جاد» يُعَذِّبُني، أَتُراهُ لا يَعْرِفُ أَنَّني أُريدُهُ أَنْ يَكْبُرَ. لَوْ يَعْرِفُ أَنَّني عَلى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْري. أُريدُهُ، وهو الوَلَدُ، أَنْ يَصيرَ رَجُلاً. أُريدُهُ أَنْ يُفَكِّرَ لِيَعْرِفَ، ويَبْحَثَ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ مَعارِفِهِ. أُريدُهُ أَنْ يَكونَ صاحِبَ مَبادِئَ، يُظْهِرُ تَعاطُفًا مَعَ أَفْرادِ مُجْتَمَعِهِ ومُحيطِهِ وبيئَتِهِ.



أُريدُهُ أَنْ يكونَ مُنْفَتِحًا عَلى الرَّأْيِ الآخَرِ، ومُتَّزِنًا قادِرًا على تَمْييزِ الصَّحِّ مِنَ الخطَأ، وشُجاعًا بما يَكْفي لِيَخْتارَ، ويَتَحَمَّلَ مَسْؤوليَّةَ خِيارِهِ.

«اتْرُكيني أَكْبُرُ». صَوْتُ «جاد» لا يُفارِقُني. ورَغْبَتي في أَنْ أَتَحوَّلَ إلى إنْسانَةٍ تَرى، ولَكِنْ لا يَراها الآخَرونَ رَغْبَةٌ تَكْبُرُ في أَعْماقي، وتَكْبُرُ وتَكْبُرُ إلى أَنْ صارَتْ حَقيقَةً في اليَوْمِ التّالي.

ها أنا أَسيرُ إلى جانِبِ «جاد»، أَراهُ ولا يَراني. أَصْعَدُ مَعَهُ حافِلَةَ المدْرَسَةِ. جَلَسَ بِهُدوءٍ بَعْدَما أَلْقى



تَحِيَّةَ الصَّباحِ على أَصْدِقائِهِ. وَضَعَ حِزامَ الأَمانِ، كَما أُوصيهِ دائمًا، وراحَ يَتَحَدَّثُ مَعَ رَفيقِهِ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ.

وعِنْدَما تَوَقَّفَتِ الحافِلَةُ لَمْ يُسارِعْ، كَغَيْرِهِ مِنَ الأَوْلادِ، إلى النُّزولِ، بَلْ بَقِيَ في مَكانِهِ، مُفْسِحًا المجالَ أمامَ مَنْ هُوَ أَصْغَرُ مِنْهُ، تَعاطُفًا مَعَهُ، ومَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ احْتِرامًا لَهُ.

رُحْتُ أَنْظُرُ إلى وَجْهِهِ لأَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ هَذا الوَجْهَ هُوَ وَجْهُ «جاد». لِجاد وَجْهٌ دافِئٌ، هذا الدِّفْءُ هوَ انْعِكاسُ الهدوءِ الَّذي يَتَّصِفُ به. ولَهُ عَيْنانِ تُضيئانِ على الرُّغمِ مِنْ سَوادِهِما الجميل.

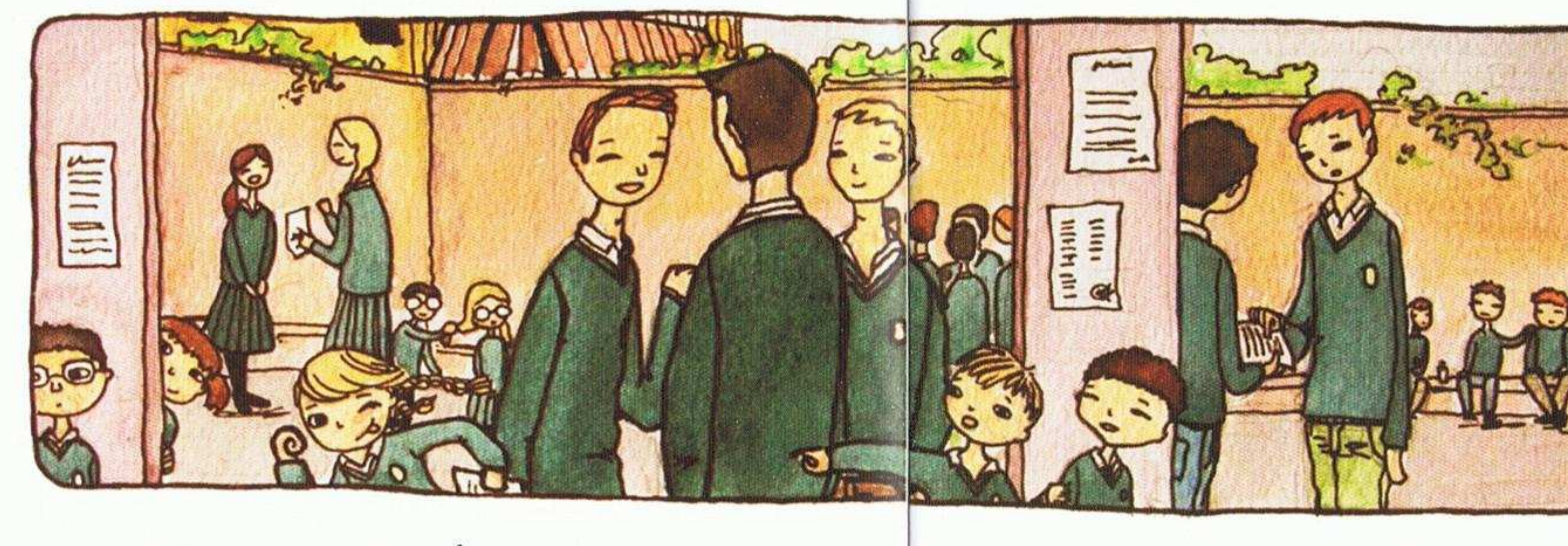


هَذا الضِّياءُ هُوَ نَتيجَةُ تَوافُقِهِ مَعَ نَفْسِهِ.

لا شَيْءَ يَدْفَعُهُ إلى الغَضَبِ، ولا يَفْهَمُ ما الَّذي يَدْفَعُ الإنْسانَ إلى الغَضَبِ أوِ اللُّجوءِ إلى العُنْفِ.

ها هُوَ في مَلْعَبِ المدْرَسَةِ يُحاوِلُ أنْ يُوَفِّقَ بَيْنَ صَديقَيْهِ المتَخاصِمَيْنِ. يَجْلِسُ بَيْنَهُما كَأَنَّهُ القاضي. يُصْغي، والأَصْدِقاءُ مِنْ حَوْلِه. هَذا يُؤَيِّدُ كَلامَ ذاك، وتِلْكَ تُعارِضُ رَأْيَ هذا، وهو لا يُؤَيِّدُ ولا يُخالِفُ، فقطْ يُصْغي. وعنْدَما تَكَلَّمَ قالَ: «عَلَّمَني أبي أنَّ القَوِيَّ هو الَّذي يُطالِبُ بِإلْحاقِ العُقوبَةِ بِمَن يُؤْذيهِ، والأقْوى هو الَّذي يُسامِحُ مَنْ يُؤْذيه». ثُمَّ الْتَفَتَ إلى صَديقِهِ الَّذي يَقِفُ إلى يَمينِهِ وقالَ: «كُنِ الأَقْوى وسامِحْهُ». والتَفَتَ إلى صَديقِهِ الَّذي يَقِفُ إلى يَسارِه وقالَ: «كُنِ الأقْوى وسامِحْهُ». وعِنْدَما سألَهُ صَديقٌ ثالِثٌ كانَ يَقِفُ بَيْنَهُما ويُحَرِّضُ واحِدًا على آخَر: «أقْوى مِمَّنْ؟»، أجابَهُ: «أقْوى مِنْ رَغْبَتِهِ في الانْتِقامِ.»

لم أُصَدِّقْ أُذُنَيّ. «جاد» يُظْهِرُ حِكْمَةً يَفْتَقِدُها الكِبارُ. ورُحْتُ أَقْتَرِبُ مِنْهُ. رَأَيْتُهُ كبيرًا. ولَكِنَّ «جاد» وَلَدٌ مِثْلُكُم تَمامًا، عُمْرُهُ كَأَعْمارِكُم. هَلْ يَكبُرُ الأَوْلادُ بِسُرْعَةٍ؟



لا... لا يُعْقَل. إذًا، هُوَ مازالَ صَغيرًا، ولَكِنَّهُ يَتَصَرَّفُ كَالكِبارِ. وسَأَلْتُ نَفْسي: «أَلَيْسَ هَذا ما أَرَدْتُهُ دائمًا؟ أَنْ يَكونَ ابْني الصَّغيرُ كَبيرًا؟ أَنْ يُحْسِنَ التَّصَرُّفَ؟ أَنْ يَكونَ قادِرًا عَلى مُواجَهَةِ المشاكِلِ وحَلِّها بِحِكْمَةٍ؟» أَصْدِقاؤُهُ يَلْعَبونَ. يَرْكُضونَ، يَتَعارَكونَ. أَمّا هُوَ فَيَجْلِسُ بِهُدوءٍ، ويُصْلِحُ بَيْنَ المتَخاصِمينَ. هل هذا ما أُريدُهُ؟ مَلاكًا مِن مَلائكَةِ الأَرْضِ، أَمْ وَلَدًا يُشارِكُ الأَوْلادَ في الرَّكْضِ واللَّعِبِ

والعِراكِ، ويَكونُ لَهُ الحقُّ في أَنْ يَكونَ إمّا قَوِيًّا يُطالِبُ بِعُقوبَةِ مَنْ يُلْحِقُ الأذى بِهِ، أو الأَقْوى يُسامِحُ ويَمْضي في طَريقِهِ يَكْبُرُ؟



أَفَقْتُ مِنْ نَوْمي مَذْعورَةً عَلى صَوْتٍ قَوِيٍّ، وصُراخٍ أَقْوى. إنَّهُ «جاد» يَسْتَنْجِدُ. أَسْرَعْتُ إلى غُرْفَتِه، وما إنْ فَتَحْتُ البابَ حَتّى رَأَيْتُهُ



يَقِفُ في زاوِيَةِ الغُرْفَةِ، والتِّلْفِزيون على الأرْضِ تَناثَرَتْ أَجْزاؤُهُ، والطّابَةُ وَسطَ الغُرْفَةِ. أَسْرَعْتُ إِلى «جاد» أُهَدِّئُ مِنْ خَوْفِهِ، وأَطْمَئِنُّ إلى سلامَتِهِ. حاوَلَ أَنْ يَقولَ شَيْئًا، ولَم أَكُنْ أَرْغَبُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِالاسْتِماعِ إلى أَيِّ شَيْءٍ. أُريدُ فَقَطْ أَنْ أَسْتَمْتِعَ بِسَلامَتِهِ وصِحَّتِهِ وعافِيَتِهِ، وما عَدا ذلك لا شَيْءَ يهمُّ. «جاد» سَنَذْهَبُ غدًا ونَشْتَري تِلْفِزْيونًا جَديدًا.

نظَرَ إليَّ كأَنَّهُ أرادَ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّني أُمُّهُ، وأنَّني لَنْ أُوبِّخَهُ، ولَنْ أُعاقِبَهُ. نَعَمْ سَنَذْهَبُ غَدًا ونَشْتَري تِلْفِزْيونًا

جَديدًا لِتُتابِعَ بَرامِجَكَ المفَضَّلَةَ، وتُشاهِدَ أَوْلادًا يَقومونَ بِالمطْلوبِ مِنْهُم مِنْ دونِ أَنْ تُذَكِّرَهُم أُمَّهاتُهُم بِذلِكَ. أَوْلادٌ يُصيبونَ ويُخْطِئونَ لأَنَّهُم يَكْبُرون.

سَأَتْرُكُكَ لِتَكْبُرَ، وتَتْبَعَ إِحْساسَكَ بِالمسْؤولِيَّةِ، فَأنا أَثِقُ بِإِحْساسِكَ وقُدْرَتِكَ على أَنْ تَكونَ مَسْؤولاً. ولا بَأْسَ إن ارْتَكَبْتَ خَطَأً. المهم أَلّا تُكَرِّرَ الخطَأَ نَفْسَهُ كَيْ تَتأَكَّدَ مِنْ أَنَّكَ تَعَلَّمْتَ.

سَأَتْرُكُكَ لِتَكْبُرَ، ولَكِنْ تَذَكَّرْ سَأَكونُ دائمًا إلى جانِبِكَ عِنْدَما تَحْتاجُ إلى قَلْبٍ يُحِبُّ، وعَيْنٍ تَحْرُسُ، ويَدٍ تَحْنو. سَتَجِدُني دائِمًا في قَلْبِكَ.



عِنْدَها سَأَلني «جاد»:

«هَلْ أَنْت بِخَيْر؟».

ضَحِكْتُ وأَجَبْتُهُ: «المهم أَنْ تَبْقى أَنْتَ بِأَلْفِ أَلْفِ خَيْرٍ.»



اتْرُكيني أكبُر

تأليف: الدكتورة سناء علي الحركه

رسم: سوزانا ابراهيم

